

على البر الآخر

مجموعة قصصية

سارة محمد عبد الفضيل

مقدمة

هنا أحلامٌ تعانق السماء، ودموعٌ تخجل منها قطرات المطر، هنا الحياة
الممزوجة بلون الدم، وهنا البريق الذي يقتل أصحابه
هنا في الجزء المجهول من العالم، إنه البر الآخر، بل هو البر الوحيد،
حيث خلودٌ في الجنة، أو لا تحيا أبداً.

إهداء

إليك أبي يا من علمني كيف أحبو إلي حُلُمي، كسرت بداخلي حاجز كل
مستحيل، علمتني بأن الطموح لا حدود له

أهديك كتابي الأول أهديك أسمك الذي سيخلده حرفي إلى الأبد، أعدك أن
أقدم في أدبي رسالة تظل باقية حتى تقوم الساعة

إلى مدرستي الأولى " ورشة السعادة "، إلى أستاذي الأول الكاتب
والروائي أحمد أبو زيد، أول من آمن بقلمي، لولاه لما خرج حرفي إلى
النور

إلى أستاذتي " نهلة الهيبان"، لقد تعلمت منك الكثير ، صبرك معي حتى
صار لقصتي كيانه، سأظل أدين لك بالفضل، وستظلين كاتبتي المفضلة
بحروفٍ تفوح بعطر جهايزة الأدب

إلى " سحر عزام"، صديقتي التي ساندتني ، وعلمتني حتى صرت كاتبة،
أتمنى أن ينال حرفك المضيء كل التقدير الذي يستحق

إلى صديقتي " نورا الزهيري"، صديقة الدرب، منذ أن بدأت الرحلة،
كنت أتمنى أن يظل حرفنا جنباً إلى جنبٍ حتى النهاية، لكن سيظل ينبع من
قلب واحد ينبض بالحب، موصولٌ بالمودّة

إهداء خاص جداً

إلى أستاذتي، ومعلمتي، أستاذة سومية نبيل الألفي، إليك سأهدي كل حرفٍ
ينتجه قلّمي، وكل نجاح سأخطوه، لك كل الفضل فيه، كل حرفٍ علمتيني
إياه، كل تمرين، وكل محاضرة، وجهتني إلى الصواب
شكراً لوجودك في حياتي، وشكراً لك معلمتي، دمتِ بخيرٍ دائماً.

بريق الدم

شمسٌ محرقة، وسياط تدوي صفعته بالأفق، ترسم لوحاتٍ مختلفة باللون الأحمر، تزهق أروحاً فتهوي على أرض البريق، تُسحب نحو مكانٍ نائي كي يشبعوا رغبات الحيوانات الضارية.

لعل حرقتها ليس أكثر ثقلًا على قلوب هؤلاء العمال من ذلك الرجل السمين أبيض البشرة الذي يترقبهم بعيون صقرٍ جارح ينتظر أي فريسة تخرج عن القطيع كي يلتهمها بسياطه دفعةً واحدة.

لا يمل منير من الحديث مع ذلك الرجل، يحاول أن يرفع عن بنو وطنه كاهل العمل والعبودية، لكن الرجل يزداد طغياناً كل يومٍ عن الآخر، صار يتلذذ بقطرات الدماء المتساقطة من أرجل هؤلاء الرجال العارية، ليس فقط من الحذاء، لكن من هيبةٍ تحميها من سجود الحاجة للمال.

يعود منير كل ليلة مطأطئ الرأس، راجياً ألا يأتيه النوم حتى لا تلاحقيه تلك الأرواح المتساقطة كل يومٍ على يد ذلك السمين، لكن لابد أنها صارت جزءاً من يومه لا يكتمل إلا به، لكن في تلك الليلة حدث شيئاً مختلفاً

وجد منير نفسه فوق بحرٍ من الدماء ويدٍ تمتد إليه لتساعده ترن في أذنيه كلمتها " لن تنجو إلا حينما يموت"، استيقظ منير حينها وهو رغم سعادته شارد لا يفهم معنى ما سمع في منامه.

اختلف ذلك الكابوس كثيراً، كان كل يومٍ يحلم بأيادي تمسك بيده بشدة، وتسحبه إلى الأسفل إلى بحرٍ عميق، مخيف اللون والهيئة، على سطحه بريق لامع وأسفله دماء وأشخاص يأكلون بعضاً أحياء، عليه ألا يتذكر ما رأى ويستعد ليومٍ جديد من العبودية البائسة

ذهب لعمله وذلك السمين لازال يرقد على ذلك الكرسي الذي اعتبره كرسي العرش خاصته، تبرز أطنان الدهون من كلتا جانبيه ولا يستطع الوقوف من تلك الترهلات الملتصقة بفخذه

صار يطلب من منير أن يتابع الرجال بنظرته الثاقبة حتى لا يختذل أيّاً منهم قطعة من أحجاره الكريمة التي ينقبون عنها في أرضهم.

يتنفس هؤلاء العمال الصعداء حينما تلاحقهم نظرات منير، يشعرون خلالها ببعض الدفئ المصحوب بالخيبة، لا يمكنه فعل شيء لكنه يتغاضى عن تقاعسهم وتلك الماسات الصغيرة التي يخبونها في الخفاء.

طلب السمين إدوارد بعض العون من إدارة دولته التي تستولي على المنطقة حينما ظن بأن منير يتقاعس عن عمله، ويغض الطرف عما يفعل بنو وطنه.

شعر منير بالأسى حينما أتت التعزيزات لإدوارد من أجل إتمام حربه للحصول على الثروة حتى وإن كان سيلتهمها مغمسه بالدماء.

جلس حينها بعيداً عند ذلك النبع يتأمل ما يحدث، يهمس في نفسه -كيف لهم أن يتركوا أنفسهم هكذا، بين أيدي أناس لا تعرف الرحمة، يستعبدونهم من دون الله، ألا توجد بداخل أحدهم صيحة تنقذ الموقف ثم تنهد بحسرة وهو يردد

-كيف لي أن أعاتبهم، هم مجبرين، لا حول لهم ولا قوة، وأنا من أملك بعضاً من السلطة، لا أقوى على أن أتفوه بحرف، أو أن أعترض.

بعضهم كان ينتحر من شدة ما يلقي من عذاب على يد إدوارد وأعوانه، وبعضهم كان يكظم غيظه ويتحمل من أجل أطفاله، يهون عليه كل شيء حينما يعود لمنزله الصغير ويرتمى طفله بابتسامة صافية حنونة بين أحضانه.

كانوا يرجون أن تتبدل الأدوار، وتدوي بداخل قائدهم صيحة حق، كي يشعر بما يمرون به، ما كان يقتلهم بحق، مروره الدائم كي يصفاح إدوارد ويتابع سير العمل بالمنطقة، ينظر إليهم غير آبه، مبتسماً، ينعم في منزله الفسيح بالمزيد من الأموال التي تمكنه أن يحيا لعقود دون أن يصيبه الفقر، فقط لأنه وافق أن تحصل بريطانيا على حق التنقيب في دولته.

نادراً أن تحدث مجادلة بينه وبين زملائه في العمل فقط يتبادلون النظرات، يخشى أن فهمه لتلك النظرات صار خاطئاً، فيقع في فخ الانهيار، إما القتل أو التمثيل بجثته، يبحث عن أي مخرج كي تتغير أحوال البلاد.

كاد التفكير أن يهلك عقله، لكن لمعت عيناه حينما اهتدى لفكرة خُيل له بأنها المنجية، هم يهددون ويتفشى طغيانهم بسبب ملكهم للمال والسلطة، لماذا لا يصبحون هم مثلهم، وتصبح حينها الحرب عادلة، يقفون في ساحتها رجالاً في مواجهة رجل.

لكنه عاد مرة أخرى شارد الذهن، من يمكنه أن يعينه على تلك الفكرة، الجميع يملك الخوف من قلبه، تتسارع نبضات قلبه كلما شعر بأن أسرته في خطر، فيقرر الخضوع مهما كانت تنازلاته.

ذهب عمله وقد قرر أن يُنحي الفكرة جانباً، ربما تحل رحمة الرب عليهم فيصعق هؤلاء الأجانب، أو تشرق الشمس وقد قبضت أرواحهم بنور الحق.

وبينما منير منهمكاً في التفكير لاحظ أحد العمال يترقبهم بنظراتٍ مريبة، وإدوارد وأعوانه منهمكين في السخرية من العمال يضحكون من لمعة سمارهم، وذلك العرق الذي يتصبب أنهاراً من أجسادهم، يتناسون تلك المكيفات التي يجلسون تحت ظل هوائها العليل، وتلك الشمس التي تتعامد فوق رؤوس الآخرين.

تظاهر منير وهو يمسك بسياطه -الذي لا يزال نظيفاً، لم يتلطح بنقطة دماء واحدة،- بأنه يوبخ أحد العمال وترجل نحوهم يمرهم بأن يعملوا بجد، وقف أمام العامل حتى لا يروا وجهه ولماذا ذهب نحوه، فلما لاحظ أحد العمال وتنبهه بنظراتٍ على استحياء صاح في وجوه الجميع،

-هيا، لا ترفعوا أعينكم عن العمل، اعملوا بجد.

لاحظ إدوارد مكوث منير لفترة طويلة أمام ذلك العامل فحاول أن يترجل بهدوء حتى يكتشف ما يفعله

كان منير يحاول أن يعقد صفقة مع هذا العامل ربما تنتشلهم مما يعانونه،
يحاول أن يخبئ تلك الماسة الصغيرة في سرواله، لكن قبل أن يضعها
أمسك إدوارد بيده وبدأ يصرخ في وجهه

-كنت أعلم أنك مثلهم، عاشقون لسرقة ثروتي وثروة بلادي.

ورفع السياط موجهه نحوه، فصاح منير للمرة الأولى وهو يدفع السياط
بعيداً عنه

-ثروة، بلادك، هل جننت أيها السمين أنسيت بأن الأرض التي تطأها
قدماك هي أرضنا نحن، اغتصبتموها واستوليتم على خيراتها، أعانكم على
ذلك خسيس لا يقوى على المواجهة، ويعشق التنعم بخير يفوح منه رائحة
الدم

صعق إدوارد من قول منير، فصفعه على وجهه بحده فدفح الرجل أرضاً
وغرس وجهه فوق حصى النهر بقدمه، وبدأ في سب الجميع وهو يصعق
الرجل تحت قدمه حتى بدأت محاولات الرجل للتخلص من جسده السمين
في التلاشي، وصعدت روحه للسماء تشتكي ربها بأي ذنب تقتل.

ثار ذلك البركان الخامد في قلوب العمال وبدأوا يتدافعون نحو إدوارد كل
منهم يحمل في يده ماسة يغرسها في جسده، استنجد الرجل برجاله لكنهم
خافوا على أرواحهم حينما رأوا في عيون العمال تلك الثورة التي لن
يخمدوها شيء

ظلوا يقذفونه ويغرسون بتلك الماسات في جسده حتى سالت الدماء من
جسده وهوى أرضاً، فصاح الرجال بالنصر، وهروا أعوانه هرباً خوفاً
على أرواحهم

هتفوها وعيونهم تملؤها الدموع،

قُتِلَ بما قتلنا به، قُتِلَ بما قتلنا به

وتتوارى بعيونها خلف ستار الزمن

سماءً تمطر، باكية على تلك الدماء التي لطخت معاطفنا البيضاء،
وانغمست فيها أقدامنا على أرض المشفى، برق ورعد يداعب أسماع
المرضى، يتردد كصوت صراخ ذويهم فلا يميزون بينهم

ولازالت أُمي تمسك بيدي الصغيرتين تبحث في وجوه المصابين عن أبي
يذاها ترتجفان تحاول أن تتصنع التماسك، وكلما مرت بإحداهن وهي
تصرخ تتسارع دقات قلبها، تبتلع ريقها بصعوبة ثم تترجل في هدوء،
تربت على يدي وهي تردد

-لا تقلق عزيزي، سنجد والدك لن يصيبه مكروه

أتأمل وجهها حائراً، فتتوارى بوجهها بدموع مكتومة حتى لا تنهمر في
البكاء، تصرعني صرخات النسوة وأختبيء بين ذراعي أُمي فتضمني
برفق، أغمض عيناى عنهم وأناجي النوم أن يأتي لكنه أبى

أراد أن يجعل لتلك الليلة ذكرى خالدة لا تنسى أبداً، لكنني بين هذا الزخم
لمحت تلك الطفلة تقربني في العمر تترقب نظراتي من بعيد تشير إلي بذلك
الدفتري الذي تحمله بين يديها لا تتوانى عن فتحه وغلقه والرسم بالقلم على
صفحاته، بعدما جلست أُمي تنتظر أن يبحث الأطباء عن أسم والدي أو
جثته بين المصابين

وكلما صوبت عيني نحوها تتوارى بين الجلوس تشير إلى أحدهم ثم
تختبيء في حضن والدها، لكنها في النهاية قررت أن تخصني بالرؤية
فنظرت إلي بعيونٍ باكية تحكي كل ما حدث

رفعت يدي أُمي واعتدلت في جلستي على أفهم ما أرادت، ظللت أفكر
لماذا تخصني، لماذا لا تقص على أبيها ما تعرف؟، ولماذا لا تبكي لعلها
تستريح

لكن لم أجد لسؤالي جواباً فكلما حاولت أن أقترب من تلك الفتاة وجدت
رجالا يشيرون بأعينهم إليها يترقبونها بحذر، سمعت أحدهم يهمس

-علينا أن نراقبها جيداً، فهي تعلم كل شيء

تراجعت للخلف حينما قالها أحدهم بكل ثقة

-لا تخف يا عزيزي فبرصاصة واحدة ينتهي كل شيء كما قضينا على
البقية

وعيناها لازالت تنظر بحدة في وجهي كأنها تطلب النجاة،

ثم هرولت بعيداً عنها حينما صرخت أُمي تنادي علي

-مؤمن، هلم إلى هنا لقد وجدنا والدك

دقت الثالثة والرابع ولازلت أ همس حاضري يا أُمي، ثم ارتسمت على وجهي
ابتسامة حينما نظرت إلى ذلك المنبه وأدركت أن تلك الليلة لازالت راسخة
أنتقل بين أحداثها في كل ليلة ولما رن الجرس أكثر من مرة حاولت أن
أوقفه فلفت انتباهي شيء يلمع بجوار الساعة لم أشغل بالي حينها وأكملت
نومي

كيف لي أن أستيقظ في هذا الوقت المبكر، لقد منحت إجازة بعد أن بدأوا
في إعادة هيكلة المشفى بالكامل، بعدما تردد من المرضى أنها مسكونة
يسمعون أصواتاً غير مفهومة ودماء متناثرة على الأرض، وأشياء تختفي
من أماكنها

استيقظت في السابعة وقد أصابني صداع شديد لأنني غير معتادٍ على النوم
بعد الفجر، فدخلت تحت المياه الدافئة لعلني أشرع بالاسترخاء، ملئت البانيو
بالمياة ثم استرخيت أغمضت عيني ولكنني صعقت حينما لامست يداي
الممسكة بحافته فرو هرة

فتحت عيني مسرعاً فانتابني الخوف، ارتديت ملابسني ووقفت أمام المرآة
أصفف شعري، أمسح بيدي ذلك البخار المتراكم على المرآة فتجمدت
الدماء في عروقي حينما نظرت إلي تلك الطفلة بعيونٍ حادة

نظرت خلفي فلم أجد شيئاً فقط صوتٌ يهمس من حولي ونورٌ يشتعل
وينطفئ دون أن أضغط على الزر

هرولت بعيداً عن الحمام، وفتحت الشرفة وقفت استنشق بعض النسيم لعلني كنت أحلم، لكن الصوت يتردد على مسامعي، وأسمع خطوات ثابتة لا يوجد معي شخصاً آخر في الشقة فقط أنا لقد ذهبت أُمي لخالتي المريضة، ربما أتت وأنا نائم، ترجلت بحذر وأنا أترقب المكان وفتحت غرفة أُمي ببطء أنفاسي تتصاعد أتمنى أن تكون نائمة

ستائر الغرفة تتمايل، ونافذتها مغلقة، أصوات تقترب وتبتعد، ثم ضوء يلمع على سريرها جعلني أنتفض من مكاني أنه نفس الضوء الذي لمحته بجوار الساعة

فضغط بشدة على زر المصباح فوجدت قطعة سوداء بعيون حادة، تنظر إلي بنظرة مألوفة، انتفضت، وكتمت أنفاسي لكن نظراتها لازلت لا تميل عني وهي تخطو نحوي بهدوء تتأملني ثم تقترب وتتشبث بملابسي لكنني أصدها بقدمي حتى تبتعد، ثم التقطت معطفي وهرولت إلى الأسفل

أحدث نفسي بخطوات متسارعة، ماذا تريد تلك الهرة مني، هل هي مجرد هرة، تريد فقط أن تداعبني، ولكن من أين أتت إلي؟، ربما وتركت أحد النوافذ مفتوحة ربما

هكذا رددت كي أطمئن قلبي الذي كاد يتوقف، هاتفته أُمي كي تحضر، لكن حالة خالتي تسوء، ولا يمكنها أن تتركها، ثم توقفت في الطريق، لماذا لا أذهب أنا إلى أُمي للاطمئنان على خالتي، كي أخلص من تلك الهواجس

قادتني قدامي إلى صديقي حكيم، جلست معه ولما وجد وجهي شاحباً أصابته الحيرة

حكيم : ماذا بك يا مؤمن، كغير عادتك تجلس دون أن تلقي بنكاتك علينا، لقد اشتقت كثيراً للضحك معك

نظرت إليه ثم أغمضت عيني وأنا اتنهد،

-لا شيء فقط هواجس لا تريد أن تتركني، ربما لأنني أجلس وحيداً في تلك الأيام، ستصير الأمور على ما يرام حينما أذهب إلى خالتي في الإسكندرية

اقتربت منه تلك الهرة التي يرببها في منزله، وتحسست جسدها في قدمه
فمسح حكيم برفقٍ عليها، تشبثت بملابسه وحاولت أن تجعله ينهض،
فنظرت حائراً

-حكيم لماذا تفعل تلك القطعة هكذا؟

نظر إلي مبتسماً

-ربما تريد أن أطعمها، أو تريد إخباري بشيء

نظرت في دهشة

-هل تمزح يا صديقي، إنها مجرد هرة، ماذا يمكنها أن تخبرك

حكيم : لا تستهين بها فهي تعلم الكثير، حتى ما لا تعلمه أنت

لمعت عيناها وكأنني قد وجدت ضالتي نهضت مسرعاً، حاولت أن أقضي
يومي بعيداً عن المنزل بعد أن أنهكت تلك الهواجس قواي، تراجلت طيلة
اليوم أتأمل الشوارع تنتابني بعض الذكريات فتارة اتبسم لإحداها وتارة
أخرى أضرب الأرض بقدمي من شدة ما تحملته من ألم

حتى استوقفتني ذكرى مرت على بالي حينما نظرت في عيون تلك الهرة
السوداء فتجمد الدم في عروقي وتوقفت في مكاني حتى انتفضت على
صوت أحدهم

-فلتأخذ حذرك يا أخي لقد كدت تصطدم بالسيارة

تنفست بعمق ثم مررت في عجلة بعد أن حل الليل وتملكني التعب، فعدت
للمنزل وأنا التقط أنفاسي بصعوبة ضغطت على زر المصباح فلم يضيء
أدركت حينها بأن الكهرباء قد قطعت

فخلدت للنوم في غرفتي حتى أستعد للسفر صباحاً للاطمئنان على خالتي،
المكان مظلم جعل جسدي ينتفض لكن هناك بصيصٌ من الضوء يتخلل تلك
الغرفة ذهبته نحوها ببطيء فإذا بالباب مفتوحاً على مصرعيه وطفلة
تحمل شمعة صغيرة تحاول أن توجهها نحوي ينتابها نظرات خوفٍ وحذر

تتلفت نحو أطيافٍ يحمل كل منهم ساتور يحيطون بها كدائرة تحاول أن تفك قيودهم عنها فلا تستطيع لا يريدوني أن أرى ما أضاعت لأجله شمعتها

تتعالى صرخاتها كلما اقتربت وأنا أشاهد من بعيد، لا أفهم ماذا تريد الطفلة، وفجأة وجه كل منهم ساتوره نحوها وسقطت الطفلة ولا زالت تحمل شمعتها بعدما فرغت الأطياف من تلك الفتاة وجهوا أسلحتهم نحوي فتقلصت الطفلة بسرعة إلى حجم هرة وارتمت بين أحضاني

انتفضت مسرعا من نومي ولا زالت تلك الهرة تتشبث بي أطمئن قلبي حينها وأيقنت أنها لا تريد أن تؤذيني، لامست جسدها بيدي فنظرت بحزن، حملتها وذهبت لإشعال المصباح كي أعرف ماذا تريد تلك الهرة مني جلست أحادثها وأنا أتكأ على أريكتي وأنظر لها في حيرة

-والآن وبعد أن تفهمت أنك تريدي خيراً، أخبريني ما هي القضية؟؟؟ نظرت إلي الطفلة وكأنها أرادت قول شيء ثم نهضت وأشارت إلى الباب فتذكرت ما فعلت هرة صديقي حكيم فنهضت وفتحت الباب ترجلت خلفها وقد انتابني الشغف والذهول في آن واحد،

-لقد كان حكيم على صواب حينما أخبرني أنهم يعرفون الكثير

لا أدرك إلى أين أذهب ولا أنظر حتى للشوارع فقط أتتبع خطاها حتى اقتربت من مكانٍ مألوفٍ لدي، توقفت لبرهه وضربت بيدي على رأسي

-يا إلهي المشفى، كم أنا رجل غبي، كيف لي ألا أفهم، هي نفس النظرة ونفس العينين، ولكن أين الآن؟، ولماذا أرسلت لي بتلك الهرة لتصلني رسالتها، ثم لمعت عيناى، بالطبع لقد صارت فتاةً جذابة كما كانت حينما رأيته للمرة الأولى

ثم تعالى مواء الهرة وهي تشير لغرفة بعيداً عن عنابر المشفى ربما كان الحراس ينامون فيها، ولكن كيف لهم أن يتركوا العمل بالمشفى لم يكملوا الإصلاحات التي منحونا الإجازة لأجلها؟

الغرفة تغطيها الأتربة وتكسوها خيوط العنكبوت ووضع على بابها قفل قديم سيطر عليه الصدا، ففتح بسهولة بمجرد أن حاولت تفحصه، سبقتني الهرة للداخل الظلام يسيطر على المكان ورائحة الغرفة تصيبني بالسعال

خرجت الطفلة مسرعة وهي تحمل في فمها شيء، حملته ثم أزلت عنه ذلك الغبار المتراكم عليها، ثم نظرت في دهشة إنه الدفتر؟؟؟

أتفحصه بشغف، كلمات حروفها مشتتة كطفلٍ لا زال يتعلم أولى كلماته منقوشة بيدٍ ترتجف فتطايرت نقاطها على أسطرٍ أخرى، تشبه الطلاسم، ولكن علي أن أقرأها وأنفهم جيدا ما تحوي علي أحل لغز تلك الهرة وتلك الفتاة صاحبة الدفتر

جلست على ذلك الرصيف المجاور للمشفى لكن ذلك البارد القارس وتلك الأمطار التي بدأت في الهطول جعلتني أهول نحو المنزل وأنا أحمل تلك الهرة حتى لا تصاب بالبرد

دخلت إلى المنزل وجلست على الكرسي وضعت الدفتر على المنضدة ثم جلست بجواره تلك الهرة، كنت أفك طلاسم كل جملة في ما يقرب من الساعة، وفي كل مرة أخمن ماذا تريد تلك الطفلة أن تقول

أستطعت أن أنفهم من كلمات أناملها الصغيرة بأنها رأت حادث تلك الليلة التي راح ضحيتها أبي وغيره ممن قتلوا وأصيبوا دون أن تبحث الشرطة عن سبب الحادث، حادث نفسي قاتلا

-يبدو أن القضية أخطر مما توقعت

صنعت كوباً من القهوة، لعلني أشعر بالدفيء وأعاود الكرة في فهم طلاسم الطفلة، أرتشف رشفتي الأولى وأنا أتساءل

لماذا أنا، ولماذا لم تقص علي والدها التي كانت ترتمي بين أحضانه يوم الحادث، وأين هي الآن، مادامت تعرف كل تلك الخبايا ومن هم المتورطون في القضية لماذا لا تبوح بأسمائهم ؟

ثم ارتجفت يدي حينما علمت من كلماتها بشيء أذهلني فحملت في الهرة
أصرخ

ليس والدها؟؟

الآن أمسكت بخيوط القضية، كانت تلك الطفلة تخفي الكثير، لعلها حاولت
تلك السنوات الطويلة في ذلك المشفى لعل أحدهم يتفهم ما أرادت أن تبوح
به، لكنهم لم يفهموا فآثروا حفيظتها، كيف لهم ألا يأخذوا بثأر من قتلوا
غدرًا

لكن في نهاية الدفتر لمحت خطأ أكثر تنسيقاً، لشخصٍ بالغ فتخيل إلي أنها
الفتاة قد استرجعت دفترها وعادت تكتب مرة أخرى بعد أن شبت، لكني
قارنت بين الحبر في الصفحات السابقة وبين ما كتب لاحقاً فوجدته لا
يفرق شيئاً

هل منحت الطفلة أحدهم دفترها، أم أن أحدهم قد سيطر عليه كي لا
ينفضح أمره؟؟؟

قرأت كلماته بنهم، الآن فهمت لماذا كانت الطفلة ترتمي بين أحضانه كلما
نظرت لأحدهم، لقد هددهم بألا يصيبها مكروه في مقابل صمتها، لكنهم لم
يتركوا الفتاة تتبعوها حتى حينما ذهبت كي تبحث عن عائلتها هل لها أن
تجدهم بين القتلى الذين رأت القناصة يصبون نحوهم الرصاصات
الغادرة، أم ستجدهم كالمصابين الذين يتخلل أجسادهم رصاصاً مطاطياً
أفقد أحدهم عينه أو أحد أطرافه

هي رأت وجوههم من قرب فقد اعتادت أن تفتح الباب خلصة في الليل
وتصعد إلى سطح المنزل كي تداعب الحمام، وتتأمل نور القمر وربما
كانت تلك الليلة هي الأنسب فأغلب العائلة قد ذهبوا للميدان، وبعضهم
الآخر يهتف في شرفة المنزل المطلة عليه، تلمع عيون المتظاهرين التي
قد أزيحت عنها غمة الاستسلام وتذوقت لذة الحق والحرية

لكن لعل تلك الغية كانت نهاية الطفلة حينما نظرت في وجوه القناصة الذين
أعتلوا سطح منزلها وتنقلوا بين مساحته الشاسعة، حاولت أن تختبئ خلف

أحدى جدرانها فلمحها أحدهم، اقترب منها بحذر ولما تملك من الفتاة أشار إليهم بإحدى الإشارات التي اعتادوا عليها في عملهم، كتموا صوت الفتاة، حتى لا تفضح أمرهم

استطاعت الطفلة أن تهرب من أيديهم وهرولت وراء هؤلاء الناس الذين ذهبوا لذويهم في المشفى، تتبعها أحدهم متخفياً بعد أن حذرهم ألا يصيبها مكروه

ثم كتب كلماتٍ أخيرة، "لكن خوفهم منها جعل القلوب تموت بداخلهم فقتلوا بكل قسوة، لذلك دونت قصتها وهي تتوارى بعيونها خلف ستار الزمن...

رايات تنكرها السماء

مع هطول المطر وتسلسل ذلك الصقيع إلى غرف النائمين، لا زال سيد يقف في الشرفة تحت قطرات المطر لعلها تغسل ما يئن به قلبه، يتذكر مع كل قطرة كم كانت تلك الابتسامة لا تفارق وجهه، يتمنى لو تعود تلك اللحظات كي يهرول مع أصدقائه كما كانوا يفعلون دوماً

كان الشتاء هو الأقرب لقلوبهم، يشعرون خلاله بدفيء الأسرة والعائلة، وحتى دفيء الوطن، حتى وإن كانت تلك المشاعر يمكن أن يختزلوها في كوب من الحمص على رصيف الكورنيش

بدأ يشعر بالألم فقد مرت أكثر من ساعة على وقوفه هكذا، بدأ يتحسس قدمه، واثكأ على تلك العصا وعيناه ترغرغ بالدموع، أغلق الباب بهدوء ثم جلس على كرسي مكتبه وبدأ يتفحص تلك الكتب لكل منهم قصة، لقد صار الآن وجودهم يهدد مستقبله

إذا علم أحدهم بوجود مثل تلك الكتب سيصير مصيره حتماً كمصير
أصدقائه، حاول سيد التماسك لكنه ألقى بهم أرضاً واحداً تلو الآخر وصاح
وعيناه تتساقط منها الدموع

-كتب، أي كتب، وكيف لها أن تهدد أمن دولتي، ومن حرم تلك الأفكار،
الآن أصبح د.مستطفى محمود من الكافرين الملحدين، كيف وقد كانت
رحلته التي دونها في كتبه سبباً في هداية الكثيرين، أيعقل أن تصبح
روايات نجيب محفوظ فجور، حتى كتب اللغات " يقولها وهو يلقى بآخر
كتاب، ويتكأ بكلتا يديه على المكتب"، ليحييني أحد

ثم همس في هدوء لن يحييني أحد لقد رحلوا جميعاً رحلوا برصاصٍ غادر
اغتصبت أرواحهم باسم الدين، أي دين لا أعلم

أجهش سيد في البكاء وترك جسده يهوى على الأرض علها أحن عليه من
تلك النفوس التي تهوى رائحة الدماء، ثم بدأ يتحسس قدمه اليسرى يتمسك
بها ويحاول أن يمسك بالسرير حتى يرمي بجسده نحو الأحلام ربما لن
يستطيعوا أن يفرضوا عليه ماذا يرى فيها

تنهد بعمق وبدأ بيبأس يتساءل، كيف فقد قدمه وأبيه وحلمه، حتى وطنه لم
يعد هو، لقد رحلت روحه للسماء حيث تراقب من بعيد وتنتقي أي روحٍ
تريد أن تلحق بها أولاً

صمت لبرهه وترجل نحو تلك المرأة المجاورة لمكتبه، اتكأ على عكازه
وبدأ يتأمل ملامح وجهه الشاحب، وعاد يحادث نفسه من جديد

-من أنت الآن؟، لقد صرت هيكلاً لا فائدة منه، لم يعد صوتك مسموعاً كما
كنت، كيف لهم أن يجعلوك بين صفوفهم بعد الآن، هم لا ينتقون سوى
القادة الناجحين، ذوي الهمم لا تجد بينهم بائسٌ أو فاشل فقير، وقد فقدت
ساقك أيها الوغد " يقولها وهو يضرب بعكازه بقوة على تلك الساق
المفقودة"

ثم تدوي ضحكاته في أرجاء الغرفة وهو لا زال يحملق في تلك الملامح
البائسة، طأطأ رأسه منكباً على قلبه الحزين وقال بصوتٍ خافت

-لقد خدعتنا ابتساماتهم البراقة في وجوه الجميع وتلك السلع والمنح التي أغرقوا بها حيناً الفقير، لم نتذكرنا دولتنا سوى بتلك الورود التي تملأ الشوارع لمدة دقائق لزيارة النواب والمحافظين

-لم تكن تعلم تعدادنا أو من منا فقير لا يأوى على الحياة، لكنهم فعلوا، أسسوا جمعيات شرعية في كل ناحية وقطر فقير، يطيبون خلالها جرح الملهوف، ويزوجون اليتامى، يدفعون الدين عن الغارمات، لماذا لا نوليهم إذاً؟

-هم يطبقوا شرع الله ، أي شرع " بصوت عالي وقد رفع رأسه وعاد يحملق في جسده الهزيل من جديد"، لقد كانوا وجهةً لراياتِ سوداء تحركهم كالعرائس فيصيروا ستاراً لأغراضهم الدنيئة وبدأ يرفع من صوته ويردد كلمة واحدة

-إنها السلطة إنها الولاية إذاً

رفع عكازه وبدأ في تكسير زجاج تلك المرأة وهو يصرخ

-إنها السلطة، إنها الولاية لا دين في قلوبهم

سمعت والدته صراخه فهولت نحو غرفته مسرعة وهو لا زال يردد كلمته، لما رأى والدته ترجل متكأً على عكازه ويده تسيل منها الدماء

-أنظري يا أمي، إنها السلطة، أخبريني أهم حقاً أحفاد المغول والصليبيين، والفرس الذين دخلوا الإسلام فقط ليأمنوا سيوف جيوشهم، لازالت تجري في عروقهم دماء العنصرية وكبر العظمة والحضارة التي عاشوها

تحاول والدته أن تربت على كتفه فيبعد يدها ويترجل في الغرفة وهو يفكر

-لم يتذكروا أن الإسلام قد حفظ لهم حضارتهم وطورها، قد أخرجهم من الجهل وعبادة النار والحيوان إلى رقي عبادة الخالق، إلى كونهم خلفاء له في أرضه، من دناوة العبودية إلى رقي الخلافة

والدته تحاول أن تقترب منه تهدأ من روعه لكنه يترجل في الغرفة
كالمجنون، ويكمل حديثه هي تشير إليه أن يهدأ لكنه لا ينصت لها

وقف فجأة وأمسك ذقنه بيده وهو ينظر في دهشة

-لكنهم كانوا أمكر مما ظننا، كنا سعداء بولايتهم، رغبتنا أن نحيا تحت
ظلمهم في أمان، لكنني أحبيهم " يرددها وهو يصفق بيده باستهزاء"، أحبيهم
على ذلك الاستدراك كانوا يخططون لهذا اليوم منذ مئات السنين، فقد كانوا
يتخللون بين صفوف الشعب بحذر حتى صاروا جزءاً لا يتجزأ من بناءه،
وضعف الدولة وقهر المستضعفين فيها ساندتهم بقوة لالتفاف الشعب حولهم
فقد صاروا صوت الحق المدافع عن المظلوم

يرفع رأسه للسماء وهو يغمض عينيه ثم يعود للتجول مرة أخرى يتخبط
في سريره وتوَلَّم بقايا الزجاج المكسور قدمه وهو غير متكرث لهذا، أمه
حل عليها التعب من التجول حوله في الغرفة فسحبت كرسي مكتبه
وجلست وهي تضع يدها على وجنتيها وتنصت بصمت له

لم يصمت إلا قليل حتى عاود الحديث

-يا لنا من حمقى، كيف لنا ألا نسأل أنفسنا، لماذا لا يوجد بينهم فقير يطلب
العون، من أين تلك الأموال التي يملكونها، لماذا لم نسمع أن أحد أبنائهم
توفي في حادث قطارٍ أو تفجير كنيسة، أو حتى انهيار عقار، أكانوا
يعلمون

-لماذا يدافع عنهم حقوق الإنسان وفسدوا الغرب، كيف لهم أن ينددوا
بالإرهاب ويدعموا متبعيه بالأموال والسلاح، كيف

ثم اتجه نحو أمه التي سالت دموعها في صمت ومسك بذراعيها وهو
يحادثها

-أخبريني يا أمي أنطق بكلمة واحدة، هل فقدت عقلي، لم أعد أثق بأي شيخٍ
يحادثني في الدين، لازال قلبي يردد جميعهم منافقون، أرى أيديهم يسيل
منها دماء الأبرياء وأعينهم تملؤها النيران التي تحرق أحلامنا وسكينتنا

رد علي، هل أنت غاضبة مني بعد مقتل أبي، هل حلف لسانك ألا ينطق بعد اسمه شيئاً

بكى بين يديها ثم تركها وابتعد لازال الفكر يتسلل كيانه والشك يقتل قلبه، يتذكر حينها ما حدث وهو يدفع رأسه بالجدار بأسى

" كان يوما عامراً بالحلم لقد استطاعوا أن يسيطروا على فكره وفكر عائلته، صاروا يرونهم رمزاً للدين، لا يرددون سوى آيات الكتاب، وابتساماتهم البراقة رسمت لسيد وذويه صورة تؤكد صفاء قلوبهم وسمو نواياهم، خدعهم الاقتداء بالظاهر حتى وإن ساءت البواطن

ابتهجوا لرؤيتهم، وانشرحت صدورهم لبعض الوقت، وبدأ سيد وأقرانه من الجيران يتقربون منهم دون سعي من الآخرين حتى استطاعوا أن يتقلدوا مكانة مرموقة بين صفوفهم

كانت البداية في التحشم في الرداء وطلق اللحية إقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعض التفقه في الدين بقراءة بعض الكتب التي اقترحوها هم ولم يجدوا منهم سوى الطاعة الكاملة، لقد توسموا فيهم الدفاع عن الحق فاتبعوه

مرت الأيام تباعاً حتى استطاع أحد أفرادهم أن يتقلد منصباً هاماً في الدولة، هنا بدأت الأمور في التغيير المتدرج وليس دفعةً واحدة حتى لا يتشكك العامة أمرهم

بدأت أوامرهم للأتباع أكثر جدلاً، بعد أن كان والد سيد يذهب مهرولاً إلى المسجد كل يومٍ قبل مواقيت الصلاة حتى يستمع لدروسهم، بدأت لا تروق له بعض الأحاديث ولما يناقش ولده سيد فيها، كان يبرر له الموقف ولماذا فعل هذا الشخص هكذا، لم يكن يأخذ هذا الرجل في اعتباره أنها أخطاء يقع فيها الجميع بل هي فوارق فردية وأفكار مختلفة بين أفراد الجماعة وارد أن تحدث، حتى حدث شيئاً لم يتقبله والده فبدأ يوبخه لدفاعه عنهم

_أترى، لقد تركت لهم اليوم المسجد وصليت في مسجداً آخر

_ لماذا يا والدي، ألم تقل أنك تشعر بالسكينة في أصواتهم وهي ترتل
القرآن ألم تكن تشعر أنك تصلي في السماء أمام العرش

قال والده بضجر : إنه فعلاً لم يتعدى حناجرهم يا ولدي

-كيف يا أبي " سيد بدهشة ".

إنهم يتجولون في الشوارع وهم يحملون السلاح كي يحثوا الناس على
الصلاة ومن يظل في مكان عمله أثناء موعد الصلاة يدمرون محله
ويأخذونه عنوة إلى المسجد، أليس هذا شيءٌ ينفره الدين

ضحك سيد وهو يهدأ من روع والده

-يا أبي ألم يقل المولى عز وجل " يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من
يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع " ، وقال تعالى "فذكر فإن
الذكرى تنفع المؤمنين" ، لقد دفعوهم لتنفيذ أوامر الله حتى ينعموا في
النهاية برضا الخالق

نظر إليه والده باستنكار

-لقد صرت تتحدث مثلهم يا سيد، أتمنى أن ينجيك الله من شباكهم السامة
لم يهتم سيد لكلام والده بل تركه وغادر مسرعاً فلديه موعدٌ هام مع جاره
الجديد معاذ

قابله معاذ بحفاوة ثم أبدى غضبه قائلاً

-لماذا لا يفكر والدك مثلك، إنه يعارض تنفيذ شرع الله، لولا أنه والدك
لكان لنا فعلاً آخر

-لا عليك يا صديقي إن مجرد خلاف في الرأي لن يفسد للود قضية

ضحك كلاهما وحاول معاذ أن يتدارك الموقف وهو يقول له

-عليك أن ترشده ألا يتدخل فيما لا يعنيه يا سيد

كان معاذ يردد تلك الكلمات بلهجة حاسمة، فشعر سيد إن لم يكف والده عن معاندته لأفعالهم لن يتركوه وشأنه فأوماً رأسه بالموافقة حتى ينهي الموقف على خير ولا يصيب والده مكروه

مرت عدة أيام وسلطتهم تعظم بموقفٍ تلو الآخرين حتى صاروا يتحكمون في كل شيء في الحي، تزداد بداخل قلب والد سيد استنكار أفعالهم لكنه يخاف على ولده، يتيقن بأن وراء تلك الصورة الوردية التي لا تشوبها شائبة أيادي ملطخة بدماء الأبرياء لكنه كان يتلاشى الشجار والتداخل معهم

حتى أتت الرياح بما أهلك قبطان السفينة فصاح وأفصح عما بداخله، كان الحاج إبراهيم والد سيد عائداً من عمله فسمع صوت صراخ بالقرب من منزلهم والكثير من الجيران يلتفون حول المنزل لم يتجرأ أحدهم الاقتراب لإنقاذ أخيه بل اکتفوا بالدعوة له أن ينجو

اندھش ابراهيم من موقفهم حاول أن يعرف ماذا حدث، ثم هرول مسرعاً نحو المنزل والجميع يحاولون أن يبعدوه حتى لا يحتدم الموقف، لكنه أصر على الصعود

صعد الدرج وهو ملغم بأفراد الجماعة الحاملين للسلاح هرول للأعلى فوجد معاذ يمسك برشاش يصوبه نحو رأس جاره مايكل وزوجته وأولاده يستغيثون

صرخ في وجهه وهو يضرب بكل قوته يد معاذ لتبتعد عن رأس جاره -أيها الوغد ماذا فعل لك هذا الرجل حتى ترهبه هكذا ألم يخبرك الدين الذي حملت لوائه زوراً بأن من آذى ذمياً فالنبي خصميه إلى يوم الدين نظر إليه في غضب وقد دفع يده بقوة وردد

-كيف تجرؤ على فعل هذا

فرد ابراهيم بثقة

-وكيف تجرؤ أنت على سلبه روحه، إنه أخينا جميعاً ولن نسمح لكم بقتله

صرخ معاذ وهو يمعن النظر بحدة

-إن لم يتراجع عن الكفر الذي هو عليه ويعتق الإسلام فلن أبقيه حياً

كاد ابراهيم يمسك بملابسه وهو يبادل الحديث قائلاً

-ومن ولاك أن تأمره بمن يعبد، لقد قال رسولك الكريم " لكم دينكم ولي

دين"، أنت حر فيما تعتق لم يولك الله كي توجهنا إلى الدين، وحتى إن

فعلت فليس بالسلاح واقتناص الأرواح، إنك أمي حقاً

فنظر إليه معاذ بغضب

- كيف تنعتني بهذا وأنا أحفظ القرآن الكريم كاملاً بالقراءات العشر

ودرست الفقه والشريعة وعلوم القرآن

نظر إليه إبراهيم باستنكار وهو يردد

-لم تحفظه عن ظهر قلب هو فقط للتباهي لكي يخدم أهواء جماعتكم،

وتطوعوه لمصالحكم الدنيئة

جن جنون معاذ وكظم غيظه حمل سلاحه ثم أشار لزملائه أن يهيموا

بالرحيل، ترحلوا بين الجيران وهم يهللون فرحين بأن جارهم قد نجا

لقد كان ابراهيم أكثر من عارض فكرهم المتطرف، لكنهم كانوا يتغاضون

عن تصرفاته مقابل طاعة ابنه العمياء لكن آخر موقف له جعلهم يخططون

للتخلص منه

لقد حذره سيد كثيراً أن يبتعد عنهم ويتركهم وشؤونهم لكنه كان يردد دوماً

" الصامت عن الحق كالداعي للباطل "

بعد كثرة المشاحنات بين إبراهيم والذين يدعون الدين، قرر إبراهيم أن

يبتعد عن أفكارهم الملوثة وقرر ألا يصلى بينهم، وجد في ذلك المسجد

الذي يبتعد عن حيهم عدة أميال فكراً وسطياً سليماً يتبع ما نزل على

رسولنا الكريم.

تهياً لصلاة الجمعة وذهب لإيقاظ سيد فوجده متيقظاً في غرفته يقرأ القرآن، ربت على كتفه وردد قائلاً

بارك الله فيك يا ولدي فليجعله الله في قلبك نوراً تهتدي به، ألن تأتي معي للصلاة

فرد سيد بابتسامة

-لا يا أبي سأصلي مع أصدقائي في المسجد المجاور

نظر إليه أبوه بحزنٍ وهمس قائلاً

فلينجيك الله يا ولدي منهم

اعتاد إبراهيم أن يذهب قبل الصلاة بأكثر من ساعتين كي يأخذ قسطاً كافياً من الراحة في بيوت الله، يستعيد به إيمانه، يجدده كل يوم بذكرٍ قد طاب به لسانه وعمر به قلبه، يشعر خلاله أنه يسجد لله أمام العرش

ترجل بهدوء ودخل إلى المسجد، توضأ وصلى ثم جلس في ركنٍ وأمسك بسبخته وبدأ في ترديد الذكر، ولما كان الوقت لازال طويلاً فلن ينزل سيد سوى عند اقتراب الصلاة

لكنه فوجيء بوالدته تنادي عليه بصوتٍ خافت

-سيد، يا ولدي، يريدك أحدهم

تعجب سيد وهرول إلى الخارج، فوجد أحدهم ملثماً فصرخ في وجهه

-من أنت وماذا تريد؟

اقترب هذا الشخص منه بسرعة وكمم فمه وهو يقول

-أرجوك لا ترفع صوتك، لقد تخفيت في هذا الزبي حتى لا يراني أحدهم

وهم ذلك الشخص في الكشف عن وجهه

فصعق سيد، وأمسك بذراعيه

-جورج ، أخبرني ما الأمر، أنتم بخير عم مايكل والعائلة بخير، أرجوك
طمأنني

حاول جورج أن يهدأ من روعه، جلسا سوياً في غرفته لبعض الوقت،
وسيد يستمع وهو مندهش أيعقل ما أسمع، شرد أثناء الحديث فدفعه جورج
بهدوء

-سيد لا تشرد عليك أن تلحق بوالدك

تركه وهرول نحو المسجد وحينما اقترب سمع صوتاً مدوياً ثم لهيب
النيران تتصاعد من تلك الكنيسة المجاورة للمسجد، هم يقفون من بعيد
يراقبون الموقف اندفع معاذ نحوه وهو يقترب من المسجد

-ابتعد يا سيد حتى لا يصيبك مكروه

نظر سيد بسخط

-والدي بالداخل

امسك معاذ بذراعيه

-اتركه تلقى نصيبه فهو يستحق

دفع سيد يده بقسوة واتجه نحو الباب فاندلعت النيران، حاول أن يطفأها
بتلك السجاجيد التي افترش بها المسجد وهو يبحث عن والده، تلك النيران
ودخانها المتصاعد تمنع الرؤيا لكنه ظل يبحث عنه لم يأبه لتلك النيران
التي أمسكت بملابسه فقط يبحث عن والده حتى عثر عليه نائماً قد وافته
المنية في المكان الذي تعلق به روحه

ضمه بين ذراعيه وهو يبكي

-سامحني يا أبي، لقد تسبب جهلي بمقتلك، ليتني قد استمعت لنصائحك

ثم حاول أن يدفع بجسده إلى الخارج بعد أن أصيبت قدماه، خرج والشرطة
تحاول أن تسيطر على النيران، حينما رآه أحد ضباط الأمن حاول معه

بحمله للخارج ثم استند سيد على أحد الجدران وقدمه تنزف وضع رأس والده على قدمه وأغمض عيناه وهو يبكي

نحيب أمه على والده، وبكاء أهل الضحايا يقتنص من روحه كل جميل، كل دمعة تفر من عيونهم ظن أنه سببا فيها، سيطرت الشرطة على النيران حتى لا تلحق بباقي المباني وحملت جثامين المصلين وتم دفنهم

ثم عاد الصمت يسيطر على كل شيء سيد يرقد على سريره بعد أن فقد قدمه، وبعض أقرانه القدامي يأتون في جوف الليل يحملون السلاح فتصرخ في وجوههن السيدات الذين اتشحن بالسواد في منزل إبراهيم

يدفعوهن بتلك البنادق التي يحملنها ويدفعون باب غرفة سيد بقوة فيعتدل مفزوعاً، السلاح في رأسه وأمسك أحدهم بجسده الضعيف يجرجره على الأرض ثم ينزل به إلى الشارع

ينادون الناس كما ينادونهم لصلاة الفجر في المساجد، أيها الناس لقد خاننا هذا الرجل وليس من شيمنا أن نترك خائناً على قيد الحياة لكننا سنتركه ليكون عبرة لكم جميعاً من يخون فعليه أن يقتل نفسه حتى لا نقضي عليه عباراتهم لا زالت تتردد على مسامع سيد يدفع رأسه بالحائط بقوة تحاول أمه أن تهدأ من روعه لكن تلك الذكريات الأليمة لا تريد أن تمحى من ذاكرته أبداً

رأسه ينزف وبدأ يبكي كطفل سندته أمه وجلست به على مهده ظل يبكي في حجرها حتى غلبه النوم تنهمر دموعها وقلبها ينزف دماً، تتمنى لو أن يعود لتضمه في أحشائها مرة أخرى

تدعو أن يبرد الله تلك النيران التي أشتعلت في قلبها حتى استمعت إلى " الله أكبر " تشق السماء، فهمست قائلة

-الآن رفعت راية الحق لتلعن كل راية تنكرها السماء

مراسل في حقل الغام

أوراق متراسة على مكاتبهم، وأصوات ضحكاتهم تملأ المكان، وتيم لا زال يقص عليهم ما حل به هو وصديقه محمود في ذلك الإستاد بين الجماهير

فتابع تيم قائلاً

-لا زال مشهد ذلك المشجع وهو يضرب الكاميرا بكل قوته، لا يبتعد عن بالي، كاد أن يهشمها لولا تدخل أحد أفراد الأمن

التف صديقه محمود نحوه، وهو يسأله بعجب

-ما الذي استفذهم في سؤالك يا تيم ؟

ضحك تيم وهو يبتعد عن ذلك المكتب الذي جلس عليه، وربت على كتف صديقه مررداً

-لعله سؤالنا لهم عن شعورهم نحو فرقته المخففة

بينما تيم وأصدقائه منهمكين في الضحك قاطعهم الساعي

-أستاذ تيم يريدك المدير أنت وأستاذ محمود

نظروا إليه في دهشة ثم سأله تيم

-وماذا يريد منا، وأردف، ربما يريد الاطمئنان على معدات القناة

كتم محمود الضحك وهمس في أذنيه

-هيا بنا ولا نتحدث ثانية دع يومنا يمر بسلام

توجها إلى المكتب وعلى وجه رئيسهم الحيرة والأسف

-تفضلاً، أردت أن أخبركم أمراً هاماً، تعلمون ما حل بمعظم مراسلونا الذين اكتسبوا خبرة كبيرة في مجال السياسة وخصوصاً بعد أن عاصروا بأنفسهم العديد من الأحداث خلال سفرهم لنقلها، وقد وضعنا هذا الأمر في مشكلة كبيرة حيث اتجه الكثير منهم نحو الإعلام ووجدوا خلاله راحة وأمان بعيداً عن شقاء عملهم كمراسلين لنقل الأخبار، وبالتالي تقلص عددهم وصرنا في الحاجة إلى المزيد منهم لتغطية الأحداث في العديد من المواقع الهامة والحيوية

نظر إليه تيم بعجب متسائلاً

-وما علاقتنا بالأمر ؟

ينظر رئيس التحرير في الورق الذي أمامه على المكتب وهو يرتدي نظارته السوداء، وأكمل حديثه وهو منهمكاً بقراءته

-لقد قررت إرسالكم على الحدود السورية لنقل الأحداث هناك، لم يعد لدي خيار آخر

نظرا في دهشة

-هل أنت تمزح أيها المدير

-بالطبع لا يا محمود، هذا قرار، وهذه تذاكر السفر الخاصة بكم على طائرة الخميس إلى تركيا، ومنها سيصطحبكم أحدهم إلى الحدود

حملاً محمود وتيم التذاكر وهم لا يدركون ما يحدث، كيف لهم أن يتركوا عملهم في المجال الكروي ويذهبوا بأنفسهم إلى الجحيم، لكن أدركا في النهاية أن هذا هو عملهم وعليهم ألا يعترضوا حتى لا يفقدوه

مر الوقت مسرعاً، وركب محمود وتيم الطائرة لإتمام المهمة، نظر تيم إلى مصر ولم يبتعد عنها الكثير لكنه أشفاق لهوائها، ولوالدته التي يستيقظ كل

يومٍ على ابتسامتها، وعمله الذي كان يحبه ويجد فيه شغفه، حتى سقطت من عينيه دمه لمحها محمود، فاقترب منه قائلاً

-لا أنت يا تيم، كنت أعتقد أنك أكثر تماسكاً، كيف لك يا رجل أن تخاف هكذا، اشتقت سريعاً للجماهير وضرباتهم

ضحك تيم ونسي همه، فأحتضنه محمود وهو يردد

-نعم هذا هو صديقي الذي أعرفه

شرد محمود وسند رأسه على الكرسي، وهو يحدث نفسه، يسخر منها، "كيف لي أن اطمأنه وأنا ارتجف خوفاً، قلبي تتسارع نبضاته، أتمنى أن يتوقف عند إحداها، سأحمل كاميرتي بين السيارات المفخخة والأحزمة الناسفة ورائحة الدم واللون الأحمر، والأشلاء تتناثر في كل مكان، علي أن أحياء تلك الفترة في صمت، وأحمد الله على كل ليلة تمر علينا بسلام، ويلطف ربي بصغاري ووالدتي".

غلبه النعاس قليلاً حتى وصول الطائرة، خرجوا من المطار وسرعان ما وجدوا سيارة تابعة للقناة تنتظرهم أمام المطار، اصطحبهم نحو الحدود كي يعبروا ذلك السور الحديدي عملهم لن يقتصر فقط على التصوير من بعيد لكن يجب أن ينقلوا الصورة من قلب الحدث

اقتربوا من الحدود وذلك الدخان يتصاعد ولهيب النيران يأكل الأخضر واليابس، ينتفضوا في كل دقيقتين على صوت انفجار مدوي، حتى وصلوا نحو الحدود

مدرعات مختلفة الأسلحة، ودبابات حديثة الصنع، وفرق من العمليات الخاصة وقناصة، جيش كامل يترقب أي متربص بحدودهم، ارتجف محمود من هول ما رأى ثم نظر إلى تيم قائلاً

-كل هذا من أجل دولة تنزف بدلاً من أن يساندوا شعبها وضحاياها، يُحكّموا السياج حتى يأمنوا الحدود

يربت تيم على يده وهو يردد في أسي

-لا تعجب يا صديقي لقد تحملوا الكثير لأجل ضحاياهم، أكثر مما تحمل
إخوانهم، ولم يصيبهم من ذلك سوى تصدير الدمار إليهم، لن يُفقدوا كل
شخصٍ يستجد بهم هل هو مواطن شريف أم إنسان متطرف

قطع أحد الضباط حديثهم بعد أن توقفت السيارة

-أنتم مراسلو قناة الحياة

-نعم نحن

-نأسف لحضرتكم ولكن لن تستطيعوا عبور الحدود اليوم فقد اشتد الضرب
بين الطرفين، وحرصاً على حياتكم سننتظر حتى الصباح

قادهم ذلك الضابط إلى معسكر قريب من المكان، واصطحبهم إلى غرفة
بالطابق الأعلى ارتمى محمود على سريرها من شدة التعب، وظل تيم
يتأمل النافذة، حمل كاميرته الخاصة وبدأ يسلطها نحو تلك النيران
والقذائف ويلتقط الصور وقلبه يتمزق، لكنه يحاول أن يتظاهر بالقوة

نظر محمود إليه لكنه لم يكن يقوى على الجدل فغط في نومٍ عميق، لم
يستطع تيم أن يقاوم أكثر من ذلك فما أن أسند رأسه على الوسادة حتى
انتقل لعالمٍ آخر

أشرقت الشمس ولازالا نائمين، فزعهم صوت قرع الباب، كاد أن يخلع
قلوبهم تخيلاً بأنه قصفٍ اقترب منهم لكن الضابط حاول تهدأتهم

-لا تقلقا لقد أوقفنا إطلاق النيران حتى نسمح لكم بالمرور، فلتتفضلوا
لنتناول الطعام

نزلا تيم ومحمود وجلسا على طاولة الطعام، نظر تيم إلى الطعام باشمئزاز
فهمس محمود في أذنيه

-لا تنطق كُل في صمت، ماذا كنت تنتظر أن يُطعمَكَ ضباط وعساكر
يحرسون حدودهم، ينامون لساعاتٍ قلائل وكل منهم ينتظر كل يوم أن ينال
شهادته

حاول أن يأكل تيم في صمت، وبسرعة حتى يذهبوا قبل أن يحدث أي قتالٍ مباغت، عبروا ذلك السياج وهم يركبون سيارة جيب يميل لونها للون الرمال، ويحاول سائقها أن يسرع في توصيلهم، حتى يعود سالماً

يتساءل محمود وهو يحدث نفسه " ما هذا الهراء أهنا كنا نسمع بالأمس تلك التفجيرات وذلك القصف طيلة الليل، أتمنى ألا يكون الهدوء الذي يسبق العاصفة"

تنهدوا حينما وصلوا سالمين، جلس محمود تحت ظل تلك الشجرة، ينظر لها في عجب ويقول

-أحل كل هذا الدمار وظللت أنت بفروعك شامخة

فرد تيم

-لا تحسدها يا رجل، دعها يستظلون بها، هيا بنا فلنسرع إلى قلب الحدث ولتشغل كاميرتك كي تنجز عملنا ونعود سالمين

وأمسك تيم بيده، ودفعه للأمام لم يترجل لكنه أسرع حتى كاد يعدو، وما أن ابتعدا عدة أمتارٍ عن تلك الشجرة حتى سقط محمود من شدة الانفجار وصعق تيم حينما رأى ألسنة اللهب تتصاعد من تلك الشجرة التي لم ترضى أن تحيا وحيدة في حدائق دمشق

اختارت أن ترحل لرفيقاتها ربما يهطل مطراً فينبت منه شجراً أكثر تحملاً لما رأوه من دمار، ربما يظلوا صامدين يحاربون مع أبناء وطنهم الآن صارت رماداً سيأتي يوماً وينفخ فيه أبناؤه فيشعلوا نيران الحرية ويدقوا طبول الحرب في وجه كل غاصب ومحتل

نظر محمود لحال الشجرة ثم سجد شكراً لله واحتضن صديقه بشده وهو يبكي

-كل كلمات الشكر لن توفيك حقك في الحفاظ على حياتي لو لم تدفعني بعيداً لصرت في عتاد الموتى

لم يعر تيم اهتماماً لكل ما قيل، هو فقط يفكر فيما حدث الآن، أهذا طبيعياً، أم صار أمراً عابراً اعتاد عليه المواطنون هنا، لم يدم تأمله كثيراً حتى انفجرت قذيفة أخرى بالقرب منهم، وأصوات الصراخ والعويل صداها يرج الجبال حتى كادت تذوب كالثلج

اقترب السائق مرة أخرى منهم وهو يصرخ

-هل تريدون أن تضحوا بأنفسكم هنا، أنا أتمنى أن أموت بطريقة أشرف، وأنا أقاتل وأحمي وطني، لا وأنا أقف لأتأمل جمال السنة اللهب من حولي هرولوا جميعاً وكاميرا محمود تتربع على كتفه شاهدة على كل ما يحدث، ويحمل تيم بذلك الميكرفون لا يعرف ماذا عساه أن يقول، هو فقط يحاول أن يرفعه فوق رأسه ظناً منه أنه سيحميه من القذف، وكأن تلك السيارة التي يرتدونها لا قيمة لها عنده

هدأ القتال شيئاً فشيئاً، لكن لا زالت الأرض تبكي على تلك الدماء التي سقيت بها، والسماء ملبدة بالغيوم تحجب الشمس وهي غاضبة على أشلاء أطفال تناثرت في كل مكان

الصديقان لا زالا مذهولين مما يروا، قلوبهم تخفق بشدة، وأيديهم ترتجف، ما إن وصل السائق إلى المخيمات حتى منحهم أحدهم سلاحاً رفعه وتركهم ورحل، هم لا زالوا في ذهول، أين الرجال؟، النساء تدرب الأطفال على حمل السلاح، وإطلاق القذائف، أطفالاً لا تهاب صوت الرصاص، ولا تخشى أن تقذف بين نيران العدو، لا يهابون الموت، لقد علمتهم أمهاتهم بأن النصر أو الشهادة لا بديل لهما ولا يصنعهما إلا الرجال

ابتسم محمود حينما وجد بعض الأطفال يلعبون أمام خيمتهم، وقف لبرهة يتأمل تلك البراءة التي لا تدرك ماذا تعني الحرب، هم أطفال لم تتعدى أعمارهم الثلاث سنوات لا تعرف وجوههم سوى البسمة ولا تمنح أيديهم إلا السلام

التقط من تيم كاميرته الخاصة وابتسم في وجوههم طلب منهم أن يلتقط لهم صورة، اصطف الأطفال بابتسامه، وبدأ في التصوير، لكن نيران الغدر

حجبت نور الحقيقة الذي ينبعث من كاميرته تلتخطت رمال الصحراء بلونٍ أحمر دامي لم يكثر تيم وصديقه لجراحهما الغائرة فقط هرولت نحو الأطفال لم يجدوا منهم سوى أشلاء، مسك محمود بيد الأطفال وهو يبكي ويصرخ كالمجنون

-آه يا تيم لقد ماتوا بسببي كنت أعدهم للموت لا للتصوير، كيف لهم أن يقتلوا الحياة ويفتتوا قلوبهم بنيران الغدر، كيف لولي أمرهم أن يسمح بأن تسال دمائهم بهذا الرخص، أين ضميرهم، أين ضمير العالم الذي قامت قيامته من أجل أسيرٍ منهم، وقتلوا منا المزيد لأجل إصابة أحدهم، أين نحن يا صديقي قل لي هل حانت الساعة ونحن نحاسب الآن، لا تقول أننا بشر وأننا أحياء، فلقد ماتت إنسانيتنا حينما فرطتنا في برائتهم .

قرية على خط الاستواء

كوخٌ يغطيه الخوص، وأناسٌ يقفون بنظام ويقف في الأمام رجلٌ أصلع سمين قليل يمسك بيده بعض الأوراق ويحادثهم في جدية

-هيا يا إخوان فلنبدأ اليوم عهداً جديداً وليتفضل من يرغب منكم بالترشح برفع يده كي نسجل أسمائكم ونعرضها على المواطنين ليكون لهم الحق في اختيار ما يشاؤون

تقدم رجلان وامرأة وحدثت مشاورات بينهم وبين ذلك الرجل يدعى إبراهيم هو أكبرهم سناً لذا يولونه أمورهم الهامة في القرية، بعد مشاورات لم تطل بدأ ينظمهم في ثلاثة صفوف ثم بدأ يحادث العامة

-هيا لقد ترشحوا عنكم فلتفكروا وتختاروا من تريدون

وتنحى إبراهيم وجلس على مقعد خشبي بالقرب منهم بدأ كل منهم في الوقوف وراء من سيرشحه حتى انتهى الجميع، قام من مجلسه وبدأ في عد كل صفٍ من الثلاثة .

ودون في تلك الأوراق التي يحملها في يده، عد أكثر من مرة حتى لا يحدث خطأ، ثم أعلن عن الفائز قائلاً

-هلموا أيها الأهل والعشيرة لقد فاز ابنكم صاموئيل لقيادة القرية، هيا
فلتتحفي به ونتمنى له عاماً حافلاً بالإنجاز

صاح الواقفون وبدأوا بالالتفاف حول قائدهم الجديد ويضعون على رأسه
تاج الورود، ثم تبادلوا الحلوى وتراقصوا طيلة اليوم، وبين تلك الأجواء
وقف أحد الأطفال بعيداً عند قمة تلك التلة يتأمل ذلك البر البعيد ينظر إلى
أضوائه اللامعة وإلى تلك النيران التي لازالت تضيء بيوتهم

إلى تلك البنايات الضخمة وبيوتهم التي تجرفها الأمطار كل عام ثم يعيدوا
بنايتها بالخوص والطين مرة أخرى شرد بذهنه وهو يردد

-يا لها من حياة، ترف وعلم وأنوار تشبه القمر

لاحظه ابراهام من بعيد فاقترب منه وربت على كتفه قائلاً

-لا تغتر بأضوائهم يا بني فهي نيران هشة تخمدتها الفتن، كلما ارتفعت
بناياتهم تقلصت مكانة الإنسان فيها، تلك التكنولوجيا التي تغمرهم حطمت
الإنسانية بداخلهم، صناديق اقتراعهم ما هي إلا أداة كي يخفوا ما يريد
الشعب كي يعلنوا ما أرادوا

نظر إليه الطفل ثم عاود النظر إلى بعيد بحسرة، وأردف قائلاً

-لكني لا أؤمن بما تقول، ربما تخدعون أنفسكم بتلك الكلمات حتى لا
يتجرأ أي منا على المطالبة بالمزيد من التحضر، هل أنت سعيد بحياتنا
هكذا، لا زلنا نرتدي أوراق الأشجار ونعيد بناء بيوتنا كل عام بسبب يوم
واحد من الأمطار، أترى يوم واحد فقط كفيلاً لهدم حياتنا، لماذا لا نأكل إلا
الأسماك واللحم أجبني إن كنت تعرف

كلمات الطفل جعلت ابراهام شاردا الذهن كيف له أن يجادل طفلاً يفكر بهذا
المنطق، مسح على رأس الطفل مبتسماً وهو يقول

-طعامنا الذي تنتفر منه منحنا القوة التي لا يملكها أي منهم، وتلك البنايات
التي صرت مولعا بها بإمكان زلزال واحد أن يجعلها رأساً على عقب،

وتلك الملابس التي خجلت منها للتو صاروا يرتدونها هناك في صيحات
الموضة التي تتغير من وقت لآخر

يا بني نحن نحتضن الطبيعة نعيش على الفطرة

بدت على وجه الصبي علامات الغضب، ثم قال بمقت

-طبيعة أين هي ، بتلك الشمس التي أحرقت جلودنا فصبغتها للون أسود،
جعلت العالم ينفر منا ويعتقدون بأننا أقل منهم في كل شيء

فرد مسرعا

-الشمس هي شعاع النور والحياة يا ولدي

استنفذ الرجل كل محاولات الصبي لإقناعه، فتركه غاضبا ورحل، لم يغفل
له جفن طيلة الليل هو يفكر وأقدام إخوته تصطدم في رأسه حتى كاد يجن،
ومع أول شعاع للشمس هرول للخارج بعيدا عن هذا الحصار، وتمتم

-الحمد لله إنني خرجت قبل أن تحرقني نيران الشمس

حينما عاد لتلك التلة وجد ابراهيم يمارس التأمل هناك جلس إلى جواره ولم
يتفوه بكلمه، لكن الرجل لاحظ قدمه، وتعجب من صمته وبدأ يتساءل في
نفسه " لماذا لم يكمل جداله معي" ووجد أن عليه البدء بالحديث

-كيف حالك بني، أرى أنك لم تتم الليلة.

نظر إليه وامتد بصره لبعيد وهو يقول

-عقلي لازال يفكر، أضوائهم التي تلمع في السماء بريقها يخطف قلبي

تقهقه الرجل ووجد أن عليه أن يجد حيلة كي يرضي هذا الصبي، لم يتمرد
أحد من قبل على حياتهم لكن وبعد أن بدأت تظهر أبراج ذلك البر البعيد
كان عليهم أن يدركوا ويستنبطوا ماذا سيفعل أبناءهم

اتجه الرجل نحو الصبي وحادثه بلطف

-كيف لقلبك أن يتعلق بغير مدينتك

فرد قائلاً

-أريد النور .

-إذا هو اختيارك أيها الولد " ابراهيم متعجباً"، كيف يمكننا أن نحقق حلمك؟

اتسعت حدقتا عينيه وانزل شفته السفلى باندھاش ثم جثا على ركبتيه وهو يكرر عليه السؤال

-حقاً، حقاً تريد أن تلبي رغبتني؟، أجبني أيها العم، أجبني؟

أحتضنه الرجل وهو يقهقه

_ نعم يا ولدي ماذا تريد؟

_أريد أن أذهب للعلم هناك .

نظر الرجل في عجبٍ من رد هذا الصبي، وعاد ليسأله

-ولما؟

رد الصبي وهو يتجول بعينيه واقفاً إلى القرية

-أريد أن أصير همزة الوصل بين قريتي والعالم، أريد أن أنقل لهم الحياة، وأن يعرف العالم عنهم كل شيء

هم الرجل واقفاً واحتضن الطفل بشدة وكاد ينهمر في البكاء، لكنه تمالك نفسه، التف به وهو بين يديه

-كنت أظن دنياهم غرتك بألوانها، لكنك أردت لنا الخير يا ولد، سأشاور القائد بأمرك حتى تحقق ما تريد

نظر الطفل في دهشة

-أحقاً ما تقول

ربت ابراهيم على كتفه ثم همس قائلاً

- نعم قريباً ستخلق نحو عالمهم

أحتضنه الطفل بشدة وكاد قلبه يرقص فرحاً، ظل النوم يجافيه ليالي طوال، وهو ينتظر العم ابراهام كي يلبي حلمه، حتى فقد الطفل الأمل، لم يعد يفكر في حلمه إلا في غفلته ، يرى نفسه يرتدي تاجاً كالملوك يحمله أبناء قريته فوق أكتافهم، ثم يستيقظ وهو يسخر من ذلك الحلم

كل يوم نفس الحلم ير اود الطفل لم يعد يكثرث لأمره، بدأ يتعايش مع قريته وما عليه فعله ينام باكراً ويستيقظ في الفجر ليعمل مع أهل القرية

حتى العم ابراهام بدأ يبتعد عن لقاءه حتى لا يسبب له الحرج، شعر في أحد أيامه الطوال بالملل فذهب للصيد بعيداً عن الزحام، وجد ابراهام يجلس هناك لم يحدثه وهم مسرعاً للذهاب

ناداه ابراهام بغضب

-أيها الولد لماذا تتجنب الحديث معي، عد إلى هنا الآن

كتم الطفل حزنه وعاد إليه وجهه شاحب مطأطأ الرأس

ابتسم الرجل بسخرية وتقدم نحوه رفع رأسه عالياً وأشار إليه إلى السماء قائلاً

-من اعتاد قلبه على التحليق بالحلم لا يطأطأ رأسه أبداً أيها الولد

رد الولد بصوت خافت

-وما فائدة الحلم إذا ظلت نشوته مجرد غفوة لا تتعدى ثواني

أمسك بيده قائلاً بحسم

-أيها الولد إذا لم تكن قادراً على التشبث بحلمك فتنحى عنه ودعه يخلق في سماء حقيقة أخرى تصدق بوجوده

نظر الولد بعجب، لم يترك له ابراهام وقتاً للتفكير دفعه للترجل معه وبدأ بالحديث

-لقد صرت متأكداً بأنك يئست أن أفي بوعدى لك، أتعلم لم تكن على صواب

تابع الولد صمته وهو ينصت للحديث فتابع ابراهام

-كل تلك المدة كانت مشاورات بينى وبين القائد حتى تذهب للدراسة هناك
بدأ الولد يتابع باهتمام، ثم تساءل وهل وافق

تابع حديثه غير مكترث

-وقد اتفقنا على توفير وسيلة لنقلك إلى أقرب مطارٍ للذهاب وشرء بعض الملابس التي تليق بكونك ممثلٌ قريتنا

تمسك الولد جيداً بيد ابراهام وكأنك قلبه كاد يقف، ثم تشبث بعنقه وبكى،
احتضن ابراهام بشدة وهو يقول

-لتكن خير ممثل لنا أيها الرجل أنت من الآن صرت سفيراً لدولتنا الصغيرة عند الملك.

ظل امتنان الطفل ينمو بقلبه لهذا الرجل كلما لمعت عين أبيه فخراً به، بدأ بإعداد العدة من أجل الرحيل انتابه خوف يلاحقه أمل، وحينما وقف أمام تلك المرأة المتهشمة ليرى تلك البدلة عليه نظر بثقة وهمس في نفسه

-لا عليك فلن أعود إلا وأنا أحمل لواء التغيير

معبد الإله آمون

"ليته لم يكن"

هي أولى كلماتهم التي نزلتها القلوب قهراً، لم تعد ألسنتهم تقدر على التفوه بها، فقط ينحنون ويصفقون تصفيقاً حاراً على كل أفعاله، بابتسامات عريضة ترتسم على وجوه أرهقتها تجاعيد البؤس والعبودية، فحتى تلك العبودية هم ليسوا مسيرين فيها، عليهم أن يؤدوها كما أراد هو

ظل أمحتوب يفكر ويلفظ كلماته تلك بصمت، حتى لا يسمعه أحد من الماره هم الآن يساقون نحو معبدهم الجديد ببهوه اللامع الذي لم يشيد مثله في طيبة، هو فقط لعبدة الإله آمون، وعلى الجميع أن يظل كذلك يعبد إله واحداً " آمون "

ترجل امحتوب في حسرة وصوت هذا الرجل الذي ينادي على أسماء المختارين اليوم للذهاب إلى المعبد، حيث تلك المدينة الجديدة التي أراد الفرعون أن ينقل فيها كل شيء يخص أمور الدولة في ذلك المكان الهادئ النائي بالصحراء، بعيداً عن ضوضاء الشعب، حتى يتعبد الفرعون وحاشيته في هدوء، ويستمتع إلى أوامر آمون التي يملئها على الشعب ليعم عليهم الخير والنعم

يقف بينهم شاباً ينظر إلى السماء يحادث نفسه

" يا آمون لكم اشتقت إلى التعبد إليك في معبدك الجديد لأختلي بك في الدعاء والتضرع، فلا أسمع سوى نداءك كي يطمئن قلبي إني أعلم أن ما وُجِّلنا فيه لابد من عفوٍ يغيره، فلتدع السماء تنزل بركاتك، ويعم الخير والسلام دعهم يحملوني إليك، فلكم أشتاق للقاءك "

سمعه شيخاً كبيراً، ونظر إليه يهمس في حسرة

" لازال عنفوان شبابك يجعل على قلبك غشاوة آمون، أي إله يمكن أن يدخلني الجنان في الدنيا وأنا أطوف حول ملكوته، غير آتون، الذي يمنحنا

الحياة ، نصعد إليه في سماواته السبع، أتضرع إليك سراً أن تعيد الحرية،
إلهي أجعل كل منا حر فيما يعبد فأنت غني رؤوف تغفو وتصفح، كيف لي
أن أدعوك وأنا بين أيدي آمون الذي يدعونه إلهاً، لماذا تعاقبني بأن تأتي
كل مرة القرعة من نصيبي، أتجول حول معبد خفاءً وأستنشق عبيرك
حول الجدران فلتعف عني ما يفعلوه بي"

وطأطأ الشيخ رأسه حزناً وتابع دوره في صمت، امنوحتب يتتبع وجوه
العابرين الذين يحملون إذن التعبد في ذلك اليوم، ويخاطب نفسه قائلاً
-أتمنى أن تدوم بسمات بعضكم، ويزول هم الآخرين، ولكن كيف وجميعنا
ننساك بصمتٍ نحو ما يريد.

تذكر حينما حاول هو وزملائه في الجيش أن يعترضوا ويثوروا على تلك
العبودية التي عاشها الشعب في عهد ذلك الفرعون

كانت معركة يحاربون فيها بقلوبهم، من أجل حرية اشتاقوا أن يستنشقوا
عبيرها الوردية، لكن دمائهم هي التي سطرت ذلك الصمت الذي ساد على
كل الوجوه

فصاروا خونة ، عملاء ، يحاربون من أجل دول معادية لدولة طيبة، ولا
يريدوا لها النجاة، منذ ذلك الحين وبعد أن كان امنوحتب مسؤولاً عن
الجيش فهو الآن يسير بين المارة يبحث عن فتات الخبز بلباسه الرث
وشعره الأجعد ينظرون له كأنه مجنون

هذه هي نهاية من يتفوه لسانه بالحق، إذا كان الباطل هو رفيقك فقد صرت
منهم، صديقاً لهم

لكن امنوحتوب لم يفلح في صداقتهم، لازال يتفقد وجوه المصطفين وتلك
الخيول التي تنتظرهم أن يركبون عرباتها حتى تبدأ الرحلة، يوماً كاملاً
حتى يصلوا إلى معبد الإله آمون في تلك المدينة الجديدة، يوماً كاملاً كي
يتضرعوا لساعة واحدة

يعودون وقد أنهكهم التعب، وتلك البناءات العملاقة التي تشاهدها أعينهم هناك، ينظرون إلى أحوالهم متساءلين، هل يريد الفرعون أن يشيد تلك المدينة لأجلنا أو لماذا يشيدها من الأساس

لأجل ضباع الصحراء، حتى تسكنها الأفاعي، يحصل الأموال منا ويرفع الضرائب ولا يعفو منها الفقير ليشيد بها أبنية تسكنها خيوط العنكبوت

مرت السنوات والشعب على صمته، لا يستطيع أن يتفوه بكلمة، فمنهم من شاهد بنفسه تلك التطورات التي يصنعها الفرعون، ومنهم من يؤيد فكره بشدة ويدافع عنه، كيف لهم أن يقفوا في وجه الريح إذ عصفت

حتى من كانوا يعبدون آمون ملوا من ذلك المعبد ألا يوجد سواه، لكل منا مكانه ومعبد الذي تستريح نفسه فيه، تراكمت الأتربة على معابدهم وسكنتها الخفافيش والعناكب، لم يعد من يزورها منذ سنوات ولم يعد فرعونهم يهتم سوى لأمر معبد المفضل ولم يعد للشعب ملجأ سوى التضرع إلى إلهه حتى يمنحه النجاة

ظل امنحتوب يتحسر لحال شعبه المسكين حتى سكن المرض جسده وقد عالجه أحدهم في الخفاء، فلم يعد قادة الجيش الجدد يهتمون لأمره حتى اعتقدوا أنه قد مات، لكن ذلك الطبيب الذي عالجه حاول أن يعقد معه صفقة جديدة عليها تحد مما يعانون منه

الطبيب : أيها القائد، ألم يؤلمك ما حل بشعبنا لقد ازداد أعداد الجوعى والفقراء، ولا يجدون ما يعينهم على دفع ضرائبهم ومؤنة أهليهم، ثم يساقون للعمل كعبيد في القصر أو يلقون بهم في السجون

حتى الدين أيها القائد فقد صار ملك لهم يتحكمون في مشاعرنا وروحنا يوجهوننا حيث شاءوا

نظر إليه امنحتوب بأسى وهو يقول

-أي قائد أيها الطبيب لقد صرت فقيراً مثلهم، لا أملك حتى حق دوائي، ويؤلمني كثيراً ما حل بي وبهم، لكن ماذا علي أن أفعل، لقد حاولت سابقاً الاعتراض أنا وزملائي وكان نصيبهم الموت بسهامٍ غادرة

وصار الآن الجيش تابعا لقصر الحاكم فكيف لنا أن نتبدل الأحوال ؟

عقد الطبيب حاجبيه وحاول أن يجد حلا وهو يتجول في الغرفة حول القائد، توقف لبرهة ولمعت عيناه ثم اقترب من القائد وهو يردد بصوت خافت

_ لكن أيها القائد لا زال بيدنا ثروة لا يستهان بها، إنه الشعب، فبداخل كل منهم بركانا ثائرا لن يخمد إلا إذا نال ما أراد وعادت له عزته التي عاش بها منذ قديم الأزل

اندesh القائد من قول الطبيب وسأله في حيرة

_ وكيف لنا أن نستغل تلك الثروة أيها الطبيب

ظل الطبيب والقائد امنحبت يتحدثان لثلاث ساعات متتالية، مفاوضات وجدل، ثم ترك الطبيب القائد امنحبت كي يستريح، لكن كل منهم لم يطعه جفنه كي يخلد للنوم، ظلا يفكرا، يتقلبا على الفراش حتى أشرقت شمس يوم جديد، نظر الطبيب إلى نورها الدافئ وهو يبتسم قائلاً

_ لعل شعاعك اليوم يحمل الأمل

لم تكن علة القائد تمكنه من التحرك لتنفيذ الخطة التي أتفقا عليها فكان يذهب الطبيب كل يوم لعدد من أفراد الشعب الفقراء حتى يشفى القائد ويكملها معاً ، كل يوم في ثوب جديد حتى لا يلحظ أحد الحراس ما يخططون له

لم يمر أسبوع حتى بدأ الحراس يلاحظون بعض التغيرات التي لم يعيروها اهتماما في البداية، لكنهم بدأوا يضجروا من قلة المقبلين على معبد الفرعون الجديد، فبدأوا يفكروا

معابد آتون عادت من جديد تفتح أبوابها للعباد، وتضاء المصابيح، أزال أفراد الشعب كل آثار هجر المعابد فعاد نورها وعطرها يفوح في كل مكان المارة نفوسهم أصبحت أكثر هدوءاً وعادت الابتسامة ترتسم على وجوههم مرة أخرى بدأوا يقتنصوا أولى حقوقهم في العبادة، لم يلحظ الفرعون بداية

الأمر أي شيء فقد حاول حاشيته أن يخفوا عنه مكائد الشعب التي خطط لها وكانوا يحشدون بعض الأفراد من مؤيديه واتباعه ويرشونهم بالمال حتى يحضروا كل أسبوع لمعبده الضخم

كل يوم اجتماعات تقام من بين أفراد الشعب مع قائدهم الجديد المنحرب في بيت الطبيب، وفي جهة أخرى أتباع الفرعون وحاشيته حتى يجدوا حلاً لتغيير أحوال الشعب حتى كانت القشة التي قسمت ظهر البعير

ذهبوا لتحصيل الضرائب من هؤلاء المتقاعسين عن سدادها، دفعوا باب أحدهم بقوة وهم يحملون السلاح، أيها الرجل أين ضرائبك لماذا تأخرت في تسديدها ؟

وقف الرجل في شموخ وهو يدفع بأولاده للداخل، ينظر إليهم

_ أي ضرائب تريدون، هل يدفع الرجل حق جلوسه في بيته إنه وطني أعمل فيه بجد حتى يمنحني الإله خيراته وأعيش تحت ظله آمناً

نظروا إليه في عجب، ثم حمل سهماً مسنوناً في يده وصوبه في وجوههم تراجعوا للوراء في ذهول وأكمل حديثه قائلاً

_ أدفع من كدي وتعبي كي تبثوا للصحاري ظلالاً كي تحتمي من حرقة الشمس، أين أموال ضرائبنا، إنها تملؤ بطونكم وعروشكم المرصعة بالذهب والفضة، وتبني قصورك الفخمة، أما أنا وباقي شعبي فنعيش في الفقر والعبودية لمن ينعمون بخيراتنا وأموالنا

اغربوا عن وجوهنا، اغربوا وإلا قطعنا رؤوسكم وتركناها عبدة لكل من ظن أننا شعباً يرضى بالهوان أو يقبل بالعبودية

يصرخ في وجوههم ويتقدم بكل شجاعة، التف حولهم الناس في لحظة وادخلوهم في دائرة أبرموا فيها النيران ثم ذهبوا يحمل كل منهم شعلة في يده ويردد حريتنا وكرامتنا الوطن للشعب ولكل منا إله

التف الحرس حول قصر الفرعون واستيقظ فرعونهم على صوت الضجيج، حاول أن يلقي خطاباً كعادته لكنهم سدوا آذانهم وظلوا يرددون كلماتهم

خرج من بينهم بهدوء رجلان اندسا من بين الحرس في وسط الجموع كانا يرتديا معطفا يغطي الرأس، وحينما اقتربا من الفرعون تقدم أحدهم ورفع معطفه وأشار إلى الجماهير إلى التوقف حتى ساد الصمت ثم وقف يحدث الفرعون بكل ثقة

_ أيها الرجل لقد حملناك أمانة ولم تصنها، فهانت عليك دماننا وأرواحنا وضعفاننا، عشنا في عهدك عجافاً لم تعشها مصر في عهد يوسف، حتى السماء فقد أعطتنا ظهرها غاضبة من صمتنا على الظلم والهوان

أين العدل الذي تدعيه وتدعو به إلهك آمون، معبده الذي كان يفوح بالإيمان صار فارهاً بالمظاهر وجمالها، ومفرغاً من كل خلقٍ ودين، أين هذا الإيمان " حاول أحد الحرس أن يقترب منه أو يصيبه بسهم فرفع الفرعون يده أمراً لهم بالتراجع " ،

أين إيمانك بكونك القائد والمسؤول عنّا، لا شيء، كل شيء عندك صار لا شيء، لقد تحدثت نيابة عن شعبك والآن سأعرض عليك مطلبهم، " ثم رفع بردية وبدأ يقرأ ما فيها "

أولاً : تتراجع عن منصبك الملكي، وتصبح دولتنا ملكها مختاراً من الشعب أجمع

ثانياً : يصبح القائد امحتب رئيس الجيش سابقاً والممثل في شخصي هو المسؤول عن الدولة حتى يختار الشعب رئيساً له

ثالثاً: تعيد كل ما أرهقت به كاهل كل مصري من ضرائب كي يتحسن وضع كل فردٍ فينا مرة أخرى

لم يكمل القائد امحتب حديثه حتى دفعه الطبيب الذي يقف في ظهره بعين صقرٍ يترقب كل من يريد به سوء، وبدأت كل شعلة يحملها كل فرد تنطفئ

ببطء بين هتافاتهم الرنانة التي تؤيد بدورها القائد المنحني، لم يلحظ الشعب
الذي يتذوق لذة النصر لأول مرة منذ سنوات تسلس بعض التابعين للفرعون
حتى يقضوا على فرحتهم

ولما بدأ يتساقط الشعب واحداً تلو الآخر، تشبث البقية بسهم الحياة التي
يحملة بيده وأشار الطبيب بيده وهو يحمي القائد لحاملي السهام حتى تبدأ
المعركة

سالت دماهم فاختلفت جميعاً على أرضهم الطاهرة، ورفعت راية الشعب
وهلك الجميع

زهرة في وادي الذئاب

صحراء جرداء، وعظامٌ كادت تتآكل من شدة الحرارة، ظلامٌ دامس، بطونهم تؤلمهم من شدة الجوع، ولم تعد أجسادهم تقوى على الصيد، يتهامسون فيما بينهم، لا يرضون عما وصل إليه حالهم ثم اعتلى قائد القطيع تلك الصخرة وبدأ يحدثهم في شموخ

ـ أيها الذئاب لقد وصل حالنا إلى أسوأ مراحلهِ وعلينا أن نفكر معا كي نجد حلاً جذرية تخرجنا من هذا النفق المظلم، لم يتبقى سوانا في الغابة، فباقي القطيع إما ماتوا جوعاً، أو تناحروا فيما بينهم حتى يأكل القوي منهم الضعيف، أو رحلوا عن وطنهم وتركوا الغابة رغبة في حياة رغبة ينعموا فيها بطعامٍ وحياةٍ كريمة

لا أريد يا أخواني أن نكون مثلهم، لكن ربما هناك أماكن أخرى لم نبحث فيها، فهيا نشد الرحال ونذهب حيث توجهنا أنوفنا

نظروا إليه بأجسادهم المتهالكة وطأطأوا رؤوسهم خاضعين وتتبعوه، حل عليهم التعب في الطريق فتساقط جسد أحدهم يهوي على الأرض وتصعد روحه للسماء، فنظر إليه ثلاث ذئاب بشره وغرزوا أنيابهم بشده في جسده، لم يستطع القائد أن يمنعهم، نظر إليهم في أسى وتركهم ورحل لم يدعه البقية يسير بمفرده، بل تأملوا ما حل بأخيهم وجال بخاطر أحدهم

" لقد صار القانون الآن من سقط صار وجبة البقية علينا ألا نضعف، لابد أن تظل قوتنا مهما كلفنا الأمر اليوم يأكلنا أخوتنا، سيأتي علينا اليوم الذي ينهش في أجسادنا الغرباء"

تابعوا الطريق في صمت وحينما اقتربوا من ينبوع الماء جلسوا للشرب والاسترخاء بجواره قليلاً، وحينها جلس القائد يفكر

" كيف لي أن أحمي من تبقى من عائلتي، إذا كنت لا استطع أن أوفر لهم أقاتهم، كيف لهم أن يحترموا وجودي وقد تركتهم يأكلون لحم أخيهام ولم أتفوه بحرف، لم يعد أمامي سوى الرحيل معهم، علنا نجد نجاة في مكان آخر، ولكن هل سيسمح لنا رواده بالبقاء شركاء لهم

قاطعه أحد أفراد القطيع قائلاً

-أيها القائد لقد وجدنا شيئاً نريد أن تراه

-ما الأمر؟

-خيراً سيدي لا تقلق

تتبع القائد خطواته بحذر، حتى لمع أمام عينيه شيئاً ما، لكن يحاوطه
القطيع، فترجل بهدوء وبدأ الجميع في التراجع، بريقها يخطف الأبصار

فتابع ذلك الذئب

-أنظر سيدي لقد وجدناها وحيدة هنا، أليست جميلة تلك الزهرة

لم يعيره القائد اهتماماً بل بدأ بستان الأمل يزهو في قلبه، لكن سرعان ما
عاد مخفقاً، نظر إلى عددهم ولتلك الزهرة الوردية، إنها الوحيدة في الغابة،
هل ستشبعنا جميعاً

ظل حائراً بينما عيونهم تنهش فيها من بعيد، حتى خطرت في باله فكرة
وبدأ الحديث بثقة قائلاً

-أيها الأبناء نعم لكم أنتم محظوظين اليوم " نظروا لبعضهم في دهشة "،
لقد كافئكم الله اليوم حينما لم ترتضوا أن تأكلوا لحم أخيكم وهو ميت
فمنحكم تلك الزهرة، هل تعلموا ما هي تلك الزهرة

فصاحوا في صوتٍ واحد

-لا لا نعرف

فأجابهم بابتسامة

-إنها زهرة الحياة، نعم هي كذلك، إن من يطعم منها قطعة صغيرة، يظل
خالداً، لا يجوع ولا يظمأ، يظل عنفوان شبابه يجري في دمه حتى نهاية
الأبد

قالها ولم يفكروا حتى فيما قال، فقط يريد كلٌ منهم أن يطعمها بالكامل حتى يخلد أبداً، فلما ازداد تناحرهم عليها أقترب نحوهم وصرخ لأول مرة في وجوهم

-أيها الحمقى لقد قلت قطعة صغيرة، أي أن الزهرة تكفينا جميعاً دعونا ننقض عليها بحذر حتى يأخذ كلٌ منا مبتغاه

اقتربوا من الزهرة بحذر وأوراقها ترتجف خوفاً، تناجي خالقها

-ربي لقد خلقتني لأمنح الخلق الجمال، والعطر الطيب، لا أقوى على أن تدقق أنيابهم أوراقى وبذوري، لم يعد لي سواك، تركتني لسنواتٍ عديدة وحيدة هنا، منذ أ، أنقضوا على الغابة، دمروا الأخضر واليابس، لم يعد سواي شاهداً على نباتها

ولما سال لعابهم بالقرب منها ثار غضبها والتفت بأوراقها بشدة وبدأت بالدوران على جذرها، فتناثرت منها أشواكاً جعلت من عيونهم الشرهة بحوراً من الدماء .

نيران خامدة

ها أنا ذا بين تلك الجدران الباردة يتخللني الصقيع فينخر في ضلوعي حتى أسمع أنين قلبي ، أتأمل تلك النافذة ذات قضبان صدأه، أتساءل ألا ترى إلا الظلام، ظلام دامس منذ ميلادي في مايو ٦٧

لم أبهcinها لتلك المدافع التي حطمت منزلنا، وأصعده اللهب التي أحتضنت السماء، كل شيء تهاوبكالرماد حتى صارت المدينة جرداء، وزاد شقاؤها حينما فقدت أمي، حتى قبل أن أطعم حنانها، أو تقبلني ،

كان والدي حينها يهرول كالمجنون يبحث لي عن ملابس يستر به جسدي الهزيل لم يجد سوى حجاب أمي التي وافتها المنية، حينها فقط وحيث استنشقت عبيرها توقف البكاء وسبحت في نوم عميق

ستكون المرة الأخيرة التي يأتني النوم في رحابها الطاهرة، حتى أبي لم يفرح بذلك الولد طالما انتظره طويلا، كان يتساءل بداخله: اليوم قد أتيت يا ولدي، اليوم ؟ ومصيبته!!!

أفقد شريكتي ووطني في آن واحد، صار يتلفت هنا وهناك ليهون عليه أحد ، لكن الجميع تائهون كل بيكي على ليلاه، يبحثون عن مأوى آخر يمكنهم أن يرقدوا فيه بسلام

لم يفكروا حتى بأمي تركوها ترقدتحت أنقاض منزلنا الذي انهار بمجرد أن خرجنا منه انا وابي

منذ ذلك الحين، وبعد أن أطفأت دموع السماء نيران القلوب تنهد أبي ونظر إلى وجهي وهو يبيكي فابتسمت، قباني وضمني بحنان

ظللنا سويا لم نتفارق أبدا ، هكذا قص علي ، رافقته في تلك السنوات العجاف حيث لا مأوى ولا أهل، فقط أنا وهو، كان يحاول أن يخفف عني الفراق، لكن طفولتي حتمت عليه أن يشعر بالعجز، لم يستسلم ولم يسمح له الوقت باليأس، ظل يجاهد حتى أظل سعيدا إلى أن وافته المنية

سقط وهو يعد لي الطعام، لم أكن حينها أتعدى العاشرة، لم معنى الفقد إلا حينما سقط وأنا ألعب بجواره، كان آخر ما أهداني إياه ابتسامه يرسلها ويدفعني كي أعبر طريقي بابتسامة مماثلة حتى ينهار جدار الحياة بداخلي لم نستطيع أن نفرح بالنصر سويا كما تجرنا مر الهزيمة، فقدت والدي وعادت النكسة من جديد

جلست بجواره أبكي حتى نمت بين ذراعيه، لم أدرك حينها شيء فقط تركني ورحل

هكذا كانت أيامي الأولى، عشت بمفردي بعد وفاته كانت الدنيا تصفني وأسقط، وابتسامة والدي لازالت ترسم على وجهي لا تفارقه

أدخر أموالي بين حين وآخر كي أملاً مكتبتي، فقط أوراقها التي تفوح برائحة الحكايا كانت ونيسي،

مر بي العمر، أكملت تعليمي والتحقت بالوظيفة، أخيراً وبعد معاناة طويلة ابتسمت لي الدنيا وظيفة مرموقة بشركة ما ! لا يهم الأسماء المهم ألا جوع وفقر بعد الآن

ابتسامات زملائي في العمل وقصصهم كانت تزيح عن قلبي بقدر ما عانيت، كنت أشعر بأن ذلك الدخان الملوث الذي ملأ صدري يتهاوى بعيداً، واستنشقت من جديد رائحة الحياة كي تعيد نبض قلبي.

استيقظت متحيراً لأمر لي لقد خاصمتني الإحلام منذ زمن بعيد، لا تأبه فقط فلتسعد لقد رأيت أمي

هكذا حدثت نفسي

ثم شردت وأنا أفكر ، لقد متحتني أمي وردة وهي تبتسم، ثم عبس وجهي؛ ثم عبس وجهي، لكنها تركتني حينما سمعت صدى أصوات ولهيب نيران يأتي من بعيد

لا شيء ، ربما قصص والدي لي عن يوم ميلادي، قد أثر على حلمي "همست غير مكترث"، ومضيت نحو عملي

وجدت عامل الشركة ينظف ذلك المكتب الذي أمامي فتساءلت لماذا، لكني لم أناقش العامل، تركته لعمله وبدأت في عملي

لم تمضي سوى نصف ساعة حتى وجدت المدير بوجه بشوش يصطحب إحداهن إلى المكتب يرحب بها ترحيبا حارا، لكن عيونها لم تكن تراه هي فقط تبتسم لي بحياء شعرت بها تردد
نعم إنها أنا

مضينا سويا نكتب قصائد الحب، وحييت معاها بالحياة لأول مرة وكان أمي أرادت أن تمنحني من عبيرها شيئا يعتني بي حتى ألحق بها
وحان ميعادي مع والد وردة ، عزمت على الذهاب وأنا في طريقي كنت أفكر، كيف لوالدها أن يوافق على شاب بسيط تم تهجير ه هو ووالده من بورسعيد فلم يجدوا سوى أحضان العامرة كي تسعهم، فعاشوا بين أحضان التاريخ في حي الحسين

ربما تكتمل الحكاية واسمع كلمة "فرغت الحدوتة"، (بعد أن أنجب منها عشرة أطفال)

ذهبت وأنا أثق بأن الله لن يخذلني، لم أجد مواصلات في يومها ترجلت لبعض الوقت ثم اصطحبت تاكسي، كانت تعيش في ذلك الحي الراقي بالقرب من الميدان

وجد سائق التاكسي حشود غفيرة بالقرب من الميدان، فتركني ورحل
لم أكن أهتم ، ظننت أنها مشاجرة عابرة

تدافعت بين الجماهير كي أعبر، حتى سمعت صفير أذني وهم يهتفون(عيش-حرية-عدالة اجتماعية-كرامة انسانية) ، مضيت غير آبه لهم فقط أريد أن أحيا مع رفيقة الدرب

لم تمضي سوى دقائق حتى وجدنا أمامنا سيارات مصفحة ضخمة نزل منها مئات العساكر أو الضباط لا أدري، هم يرتدون بذلة سمراء لا نرى

من وجوههم شيء، دفعونا نحو السيارات بعصي، لم يتركوا في أجسادنا
جزءاً، إلا وقد حفر به أثر ذلك اليوم

وها أنا ذا أنقله لكم من بين جدران الزنزانة رقم ٩ أتجمد برداً وألعن تلك
الحروب التي لا تثور نيرانها إلا لأجل أن تغيم سحبها على شمس أحلامي
وجدت جسدي يرتعش بشدة ثم اندفعت نحو وجوه الجميع ليخبرني أحكم
لما أنا هنا، لقد أتيتم لهدف أنتم تعلموه لكن ما بالي أجلس معكم وأعذب
مثلكم لهدف أسمى مما كنت أريد

"بدأت أضحك بشكل هستيري ثم توقفت فجأة" ولكن هل تعلمون لن اجعلهم
يلقون بي هنا بدون سبب

وهرولت نحو باب الزنزانة وأنا أردد بداخلي

لن أرحل دون أن أشعر بالحياة

وبدأت أردد بصوت مرتفع وأنا أدق على الباب

(عيش-حرية-عدالة اجتماعية-كرامة انسانية)